شجى على منال[1]

د. حسن فتح الباب

هل يرتَوي الترابُ مِنْ عِظامنا
إذا استكنَّت في يديه وَهَنا
ويصطفي الأحبابَ يقطفُ الشبابَ
كي يَمُدَّ عمرَهُ الزَّمان؟
هل يَسْتوي الّذين يعلمونَ والذين لا

سِيَّانِ هذا الوهمُ واليَقين
سُرداقُ الأحلامِ والأحزان
لَحْدُ الوَردِ والكفنْ
وحكمة الجنون

الشَّبح المرآةُ والقِناعُ والسِّكّينْ
الطاعنُ الطَّعين
(الشيخُ والقيثارُ) (مِتْوَلِّى البُحَيْرَه)
تزاحمُ الأضدادِ مَغْرِب الوَثَنْ
وصولةُ الذُّيول بالدولارِ
والصَّحافة الصَّفراء والمِحَن
ولا عزاءَ ضَمَّنا ولا (انتفاضةً)
إلَّا مواويل الأَحِبَّة المُصَفَّدينَ:
(آهِ يا زَمَنْ)
في شَهْقة النَّاي الرخيم:

ينعَمُ المُخاتِلُ الشَّقيّ
وَيَنْطَفِي نجمُ المُناضِل البَهِيّ

والويلُ لِلشَّجيّ
مِنْ لَعْنة الخَوَّانِ والجَبانِ والدَّعيّ
أيتها الحرِّيةُ البراءةُ القَتِيل
غزالةَ الضُّحَى
يا حُلْمنا وظِلَّنا الظليل
أَسْرَى بكِ الرَّوَاحُ للمغيب قبلَ أَنْ
تنالي يا (منالُ) قُبْلَةَ المَساء
يا بَوْحنا وسِرَّنا
وأَدْمَت الجراحُ وجهَ الشّمسِ والقَمرْ
يا طفلة الحبّ الرحيل عمرنا الجميل
أبكيكِ يا (منالُ)
هذا زمنُ الطفولةِ المهيضةِ الجناح
كَدْحٌ ولا نَوال
سُهْدُ اللَّيال
مُحتَشَد السؤال لا جَواب
مقصلة الخِطاب والوِصال
والفَجْرُ غَيْبٌ من نُواح
في غابةِ النِّصالِ والدُّموع
حَصْدُ الهَشيمِ مَوْسِمُ الذُّبول مأتمُ
الفُصول
(منال) زينةَ الصَّباحِ يا قيامةَ الربيع
حامِلةَ المصباحِ للنُّجوم
من أجلك السماءُ أورقتْ بَراعِماً

وغرَّر اليبابُ أَزْهَرَ الصَّبارْ
واليومَ مَنْ للعائدَين.. للعُناة.. بعدما
ضلَّ بنا السبيلُ؟
مَنْ للقادمينَ بعدنا؟
بعدك لا عُقْبَى ولا سَلْوَى

غالتْ بهاءَك الملائكيَّ رِحلةٌ
بلا إيابٍ رحلةُ الإغراءِ والإغراقِ
والحرمانُ في الإغراء
آخرةُ المُسْتَضْعفاتِ حينما
تلفظهنَّ للجحيمِ أمُّنا الطَّيِّبةُ الرَّحيم
جَنَّتنا النَّضَّاحَة العُيون بالهموم
من بعدما تقطَّعَتْ بها الأمانيُّ العِذَاب
واسْتَشْرت الذِّئاب
تنفي صغارَها مخافةَ العَذاب
في مَسْرح التوائمِ الأعداءِ والعُبدانِ والإماء
طُغاتِنا الصِّغار
أَمْواتِنا الأحياء

* * *

(١) منال: فنّانة تشكيليّة في ربيع العمر خاضت تجربة الغربة والمعاناة في أحد بلدان الخليج، ثمّ ودعّتنا هناك بلا عودة إثر حادث مأساوي في الطّريق.

←

(منالُ) قد عجَّلتِ بالسُّرَى
فمَنْ تُرَى
كسا جبينَك الحبيبَ بسمةَ الوَداع؟
بِشارةُ الوَعْد الخَلُوب أم قَتامَةُ الوَعِيد؟
الصِّلُّ في الأخدود أم تجبُّرُ العَبيد؟
أم خطوُنا معلَّقاً بينَ (الجَحيم والنَّعيم)؟

نمضي ولا نحين
نأتي ولا نكون
يا ليْتَ أنَّا نعرفُ (الأعْراف)
نختارُ ما شِئْنا فلا نَحار
(دانتي) ارْتَحِلْ
(شيخُ المَعرَّةِ) ارتحِلْ:
[تَعَبٌ كلُّها الحياةُ فما أعجبُ
إلَّا من راغبٍ في ازْدِياد
إنَّ حزناً في ساعةِ الموتِ
أضعافُ سرورٍ في ساعَة الميلاد]

* * *

النَّفْطُ يلعَقُ الجِراحَ، والخَليج
يطوِي نشيجَ طفلةٍ في مَفْرق الرياح
تذودُ عن مِهادِها الوديعِ عَضَّة اللئام
يخافُ قلبها الربيعيّ الحنون أن يُفَجِّرَ الصَّنَمْ
أنْ ينفخَ الغَداةَ في الصُّورِ لكي يقومَ من ظُلِمْ
يعافُ رَمْيَةَ الحَجرْ
في (القدس) في (غَزَّةَ) أعْمَى الشَّاطِئَيْنْ
أبْكَمَ - يا وَيل الذي نَادى - أَصَمْ
(منالُ) من تُرى رَمَى بقدِّكِ الرَّهيف
في يديه
والباسِمِ الرقراقِ في الشِّدْقَيْنْ؟
ومن تُرى أنباكِ أنَّ طوقَه الحنانُ
حولَ جيدِكِ النَّديّ
فلم تَرَيْ أنيابَه الحِدادَ كالسِّهام

أسْلَمْتِهِ ريشتَكَ المِمْراحْ
لِتَنفُضي عنها السَّأمْ
والنَّفْيَ والجِراح
وتنفُضِي عن وجهِهِ المجرورِ وَشْمَ الدَّم

* * *

لقاءَ دِرْهَمَيْنْ
زكاةَ مالِه الحرَام
نِصابَ أثوابِ الحِداد
[حمامةَ الأيك من بالشَّجوِ طارَحها
ومن وراءَ الدُّجَى بالشَّوْقِ ناداها؟][2]
لا أيكَ لا شَجَىً ولا دُجىً ولا نِداء
شوقٌ على أرْض عَراء
عيشٌ هَباء
دُمىً خَواء
كَوْنٌ عَماء

حمامةٌ من نِيلِنا مُطَوَّقَهْ
عاد بها الحنينُ لِلدِّيار
شَهِيدةً في دَمِها مُضَرَّجَه
ولا حِجار
تَرْمي بها عِصابةَ الفُجَّار
في زَمَنِ المُرْتَزِقه
فأجْهَشَ المطار
وانْسَدل السِّتار

(٢) هذا البيت من شعر شوقي.